

**حوار مع جريدة الوسط (2)**  
**لا نستطيع إنكار الولاية لثبوتها في القرآن والسنة**  
**السيد يوسف الرفاعي: نتبع المدرسة السلوكية في التصوف ونتحفظ عن**  
**«الفلسفة»**

كتب: مهدي عبدالستار

{ ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية عقيدة وحدة الوجود، والقول بالحقيقة المحمدية، وأنه المستوي على العرش، وينزل الوحي ومن نوره خلقت السماوات والأرض، واتهم الصوفية بأنهم وراء هذه العقيدة الفاسدة، فما موقفكم من هذا الفكر؟

— بادئ ذي بدء لا بد أن نعرف أن التصوف فيه مدرستان: مدرسة سلوكية ملتزمة بالكتاب والسنة، وهي التي تهدف إلى تصحيح سلوك المسلم وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وتدله على كيفية التقرب إلى الله، مثل مدرسة الإمام الغزالي والرفاعي والجيلاني والشاذلي والدسوقي والنقشبدي والتي يتبعها غالبية المسلمين في العالم الإسلامي كله، وتستقطبهم من دون غيرها، وهذه الطرق هي التي تلتزم بالكتاب والسنة الحقة والتي تسمى بـ«التصوف الشرعي» الذي يتسم بالسلوك القويم إلى الله وهذه المدارس هي التي نعتمدها ونعتمدها وندعو إليها.

وهناك قسم ثان من مدارس التصوف وهي التي ألحقت بالتصوف، وهي المدارس التي تطلق عليها المدارس الفلسفية أو «فلسفة التصوف» أو «مدارس الاستشراقات» أو «مدارس المعارف والفيوضات»، وهذه المدارس لها رموز كبار أمثال الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي والحلاج وغيرهم ممن اشتهروا بفلسفة التصوف، وهذه المدارس لنا تحفظات عليها، والله الحمد هذه المدارس ليس لها مريدون في عالمنا الإسلامي ولم يعد لها تكايا أو زوايا الآن. وإنما هذه أفكار موجودة عند غير المسلمين ممن يقرأون عنها في كتب هؤلاء، ويدخلون الإسلام بعد اطلاعهم على الأفكار التي كتبها أصحاب هذه المدارس، ثم تصحح أفكارها، واليوم لم يعد يحسب هؤلاء على التصوف، إذ لم تعد هناك مجالس ذكر وزوايا للشيخ ابن عربي أو الحلاج كما هي متواصلة ومنتشرة في مجالس ذكر الشيخ الرفاعي والقادري والشاذلي، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا فلاسفة ومفكرين، وقد يكونون تأثروا بالفلاسفة اليونانيين أو غيرهم،

إلا أن الفرق بيننا وبين غيرنا أن غيرنا من المسلمين يكفرهم ونحن لا نكفرهم، اننا نخاف أن نقع تحت قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كفر مسلماً فقد كفر»، ثم لماذا لا نكفرهم؟ لأن هناك علماء أجلاء من بينهم الشيخ عبدالوهاب الشعراني كذبوا عليه في حياته ونسخ قوم كتبه وزوروا عليها الكثير، فطبعت ونشرت ولم يعلم طابعوها وناشروها بما كتبوا، وقد قال هو مرة لأصحابه: لقد أتيت بما كتبت من النسخة الأصلية وما كتب عني وعرضته على رجال الأزهر فشهدوا لي بأن هذه الزيادات مكذوبة عليك، ومنها عرفت أنه كذب على الشيخ محيي الدين بن عربي. ونحن نرجح أن هؤلاء الفلاسفة من الممكن أن يكذب عليهم، كما أننا قد نتأول الكلام، ونبرره بأنه ربما لم يكن يقصد هذا الأمر، بدليل أن في كتب ابن عربي (ما يفهم عند وحدة الوجود) كما يوجد فيها (ما ينكر وحدة الوجود)، فهذا التناقض يجعل من الصعوبة الحكم عليه، ونحن نسير على ما عده القانون الحديث «بأن الشك يؤول لمصلحة المتهم». وأنت إذا رأيت شخصاً يمدح انساناً ويذمه فلا تستطيع أن تعاقبه لأنه ذمه إذ اشتمل كلامه على النقيضين.

ونحن لا نتبع هؤلاء الفلاسفة ولا نعتقد في آرائهم ولا نكفرهم في الوقت نفسه وحتى السلف الصالح من هذه الأمة وعامة المسلمين وأتباع المذاهب الأربعة لم يكفروهم.

{ لكن المعروف أن كثيراً من الصوفية قادم من مذهبهم إلى ادعاء الولاية وعلم الغيب والتعلق بالمشايخ والرموز ممن ظهرت عليهم علامات الزندقة، إذ قالوا بسقوط الفرائض وإتيان المحرمات كشرب الخمر والزنا واستباحة الكبائر، أمثال الحلاج وابن الفارض والعفيف التلمساني وعبدالغني النابلسي والتيجاني. فما ردكم؟

— أولاً: إن الله تعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (سورة الحجرات/6). والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، (رواه الطبراني عن ابن مسعود).

ثانياً: حتى لو سلمنا بأن بعض من ذكرتم قد شطح وانحرف، فإنهم لم يكونوا بهذا القدر من السوء والمخالفة للشرع وخصوصاً في ما يتصل بارتكاب الكبائر والمحرمات.

ثالثاً: الذين يتهمون التصوف يخلطون بين المدرستين، مدرسة التصوف الشرعي السلوكي، ومدرسة التصوف الفلسفي التي تحسب على التصوف لكن التصوف بريء من كثير منها.

أما قضية ادعاء الولاية وعلم الغيب فكل الأولياء الكبار الذين عددناهم كالرفاعي والشاذلي وغيرهما يحثون مريديهم على الابتعاد عن الدعوى، أي الادعاء بالوصول أو ادعاء الولاية وغيرها، ويقولون إن الولي يتستر من الكرامة كما تتستر العذراء في خدرها، وذلك في حين أن هذه الكرامة عطاء من الله إليه وليس من جهده أو كسبه، فمن أبداه للناس من باب الترزق به أو العيش عليه فإنه آثم لأنه استعمل نعمة الله عليه في غير محلها. ولكن ظهور الكرامة قد يكون رغم أنف الولي كأن يجري الله بين الناس بعض الكرامات الظاهرة على يديه، كالإنقاذ من ضيق أو الانتصار من هزيمة أو كأن يكون في عطش شديد في الصحراء فيسقيه الله ويسقي به من معه، ومع ذلك فبحث الكرامة وارد في الشريعة الإسلامية لأن الكرامات لا تنكر شرعا كما يقول صاحب الجوهرية:

شعر أثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه  
لماذا؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وردت له معجزات ولأصحابه كرامات، وكما حدث مع عمر بن الخطاب وهو على منبر المدينة إذ صاح يا سارية الجبل، فسمعه سارية قائد كتيبة للمسلمين في فارس فكانت صيحة عمر سبيلا إلى نجاتهم وهناك الكثير، كما ورد في القرآن الكريم للسيدة مريم عليها السلام (وهي لم تكن نبيّة) كرامات، ولغيرها كالذي كان عنده علم من الكتاب من ملأ سليمان عليه السلام وأتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذا لم يكن نبيا.

إذن الكرامة هي الأمر الخارق للعادة قد يكرم الله به عبده عند الضيق وعند الحاجة، وهذا نوع من الولاية بأن الله أكرمه، والصوفيون لا يتباهون بهذا الأمر على الناس ولا ينقصونه، ولكن لا يمكن أن نقول إنه يجب على الصوفية أن ينكروا الولاية، لأن هذا ثابت في الشرع، وإذا نسبناها إلى الإنسان كبرت في عيوننا، أما إذا نسبناها إلى الله فهي صغيرة بسيطة لأن الله على كل شيء قدير، وسبحانه وتعالى قد أعطى عيسى عليه السلام الخلق من الطين طيرا فينفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإذا يكون في أمة نبينا محمد من يكرمه الله بمثل هذا؟ فليس هذا على الله بكثير، بشرط أن يكون هذا الذي تظهر عليه الكرامة ملتزما بالكتاب والسنة وإلا عددناه استدرجا أو سحرا.

{ فماذا تقولون عن يدعي وصوله إلى مرتبة من اليقين تسقط عنه الفرائض والواجبات؟

— لم أجد لأجلاء الصوفية ولم أقرأ كتابا في الصوفية يقول: إذا وصل العابد أو الصوفي إلى مرتبة معينة تسقط عند التكليف، ومن يدعي على الصوفية هذا

الكلام فليأت بدليل، بهذا الكلام نسمعه ولي عليه دليل قائم، وهذه تهم تلصق بالتصوف وهي غير موجودة لا في كتبهم ولا سلوك أتباعهم. وأحب أن أضيف أن هناك لبسا عند البعض مما يقوله بعض المشايخ من أنه في بداية الطريق يشعر بالتكليف وبالمعاناة والتكلف فتفهم العبارة بغير مقصدها، لأن هناك منهم من قال: «عبدت الله ثلاثين سنة بتكليف ثم تمتعت بها ثلاثين سنة»، ولكن لسوء الظن يفهم غير المقصود، فالمقصود أنه في عبادته لله ثلاثين سنة عانى التكلف والمعاناة، ولكن بعد ذلك صار يشترك إلى العبادة من دون مجاهدة ولا مشقة ولا تكليف. فليس معنى ذلك سقوط التكليف لأن قدوة الصوفية في هذا هو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله بالعبادة حتى الوفاة قائلاً له:

«واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» (ختم سورة الحجر)، أي (الوفاة)، ولم يسقط هذا التكليف عن النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يصح لشيخ صوفي أو مرید أن يسقط عن نفسه التكليف، فيخالف أسوته في ذلك، ولو قالها صوفي لتبرأنا منه.

{ وماذا تقولون في أقوال الحلاج وابن عربي في أن إبليس كان موحداً عبداً وهو من أهل الجنة، لأنه عرف الحقيقة؟ وهل تنفون ذلك لصراحة مخالفته للنصوص الصحيحة التي وردت في القرآن والسنة وإجماع الأمة؟

— الحقيقة أنني لم أقف على شيء من هذا، لكنني سمعت أن ابن عربي يقول في أحد كتبه إن إبليس إما أن يسامحه الله أو أنه سيدخل النار ثم يخرج منها، لكن لأن القرآن قال بصريح العبارة إن إبليس هو إمام أهل النار، وإنه سبب غوايتهم وإنه مخلد، فهذا ما نؤمن به. أما كون إبليس كان موحداً فقد استدل من قال بذلك بأن الشيطان أقسم بعزة الله فقال: «فبعزتكم لأغوينهم أجمعين» (سورة ص: 82)، وهذا معناه أنه أفضل من بعض أتباعه الذين ينكرون وجود الله تعالى كلية، وهو لم ينكر وجود الله؛ فكيف ينكره وقد عبد الله فترة طويلة في السماء، ولكنه عصى أمر الله لما أمره بالسجود لآدم، فالشيطان لم ينكر وجود الله لكنه مخلد في النار لأنه عصى أمر الله، وفي القرآن قوله تعالى عنه متبرئاً من مشركي قريش في غزوة بدر: «إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» (سورة الأنفال: 48).

{ إذن تقرر بأن إبليس كان موحداً؟

— إبليس أقسم بعزة الله، لذلك لم يكن كافراً منكرًا لله لأن الكافر هو المنكر لوجود الله، وإذا كان الكافر هو العاصي لله فهو كافر، فالمسألة تتوقف على التعريف، فإن كان الكفر هو عدم الإيمان بوجود الله تعالى وإنكار ذاته فالآية الشريفة تدل على عدم الإنكار، وإن كان المقصود بالكفر هو عصيان الأوامر فهو كافر، وفي قوله تعالى: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال

إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» (سور الحشر: 16). فهو كافر بمعنى عصيان الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: «قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» (سورة ص: 84 - 85)، فلم نقرأ في القرآن أنه أنكر وجود الله، لكن كفره كان نتيجة العصيان وتحدي الذات الإلهية، قال تعالى: «قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم» (سورة الأعراف: 16). كما أنه ملعون الى يوم الدين، ويحشر مع الكافرين إلى جهنم، قال تعالى: «فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جنثيا» (سورة مريم: 68). وآيات أخرى. ولكم أحب أن أقول إن هذا الموضوع ليس مطروقا للبحث فيه خصوصا في المجالس الصوفية والمدارس والطرق، وإن كان قد مر فإنه مر في الكتب السابقة للفلاسفة.

{ هل يفهم أنكم تتبرأون من قول ابن عربي في إبليس بأنه كان موحدا وعبادا وأنه من أهل الجنة؟

— نعم أتبرأ من مقولة ابن عربي لأنها توحى بالتساهل في أمر إبليس، وتوحى بالتقليل من خطره وتدعو الإنسان إلى أن يخفف من جرم إبليس، ولا أدعو إلى مناقشة هذا الموضوع، كونه موحدا أو غير موحد، وهذا أمر نكله إلى الله سبحانه وتعالى، وأركز على جانب الغواية وأن الله تعالى قال فيه: «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» (سورة فاطر: 6).

<http://www.alwasat.com.kw/Default.aspx?MgDid=11934&pageId=85>